الأدب والعلم

محاضرة بقلم أستاذ كبير

الروايات الممتازة أصدق وأبقى من كتب العلم

[وليم ليون فلبس William Lyon Phelps أستاذ الأدب الانكليزي ورئيس دائرته في جامعة يال الاميركية مشهور في أميركا وانكلترا بمعارفه الأدبية العالية وآرائه في تاريخ الأدب الانكليزي وتقده. فهو متعصب للأدب متأنق في العلم ولكنه ليس متعصباً رجل يحجب الهوى الحقيقة عن عينيه، بل هو يؤيد رأيه بالحجة القوية والواقع اقناعاً غير يسير من الحق ملازم رأيه في الناحية التي اختارها للمفاضلة بين العلم والأدب قال : —]

مع أن العلم يفوق الأدب في دقته وروعة الجديد فيه إلاَّ أنهُ لا يكاد يقرب من الأدب العالي في صدقه فالروايات العظيمة أصدق في التالب من أي مؤلف علميٍّ

لنفرض اني أستاذ للطبيعة وانني دخلت ذات صباح حجرة التدريس وقلت لتلاميذ اليوم كتاباً في الطبيعة الف من خمسين سنة أي سنة ١٨٩٠ فلا ريب عندئذٍ في أن الضحك يغلب على الطلاَّب . فأقول لهم : ألم يكن مؤلف هذا الكتاب ثقة في موضوعه، ألم يكن أميناً للعلم والحقيقة ؟ فيردون عليَّ كان المؤلف كلَّ ذلك وأكثر منهُ ، ولكنهُ وضع مؤلفه من خمسين سنة . ولو كان حيًّا اليوم ، لما كان لهُ مفرٌّ من تنقيحه وإعادة كتابته وطبعه . ان الطالب المبتدىء في علم الطبيعة يستطيع أن يشير الى ما فيهِ من خطإ يجب أن يحذف ، أو قول لا بدَّ من تعديله . لان كثيراً مما كان صحيحاً في عرف العلم سنة ١٨٩٠ أصبح لا يستقيم اليوم . بل هناك أشياء كثيرة كانت صحيحة سنة ١٩٢٠ في نواحٍ من علم الطبيعة ولكنها ليست صحيحة اليوم. فالعالم يجب أن يدأب على تنقيح مؤلفاته مجاراةً لتقدم العلم ونحوهِ

والواقع اني اظن أن معدَّل عمر النظرية العلمية لا يزيد على سبع سنوات . فما يكاد ينتشر أحد الباحثين نتائج بحث قضى فيهِ ثلاثين سنة ، حتى يطلع باحث آخر بعد بضع سنوات ببحث آخر يهدم بهِ معظم ما ذهب اليهِ الباحث الاول

فيجب ان تستوثق أيها القارىء عند ما تبتاع كتاباً علميًّا ، أو دائرة معارف من ان الكتاب او الدائرة من أحدث طبعة . ومن المقابلات الطريفة ان الطبعة الاخيرة من الكتب العلمية

هي أكبر قيمة من نسخ الطبعات القديمة، الا لمن يبتغي الصفة القديمة لحفظها في متحف او للاطلاع على حالة العلم في موضوع ما في وقت ما . أما الآثار الادبية العظيمة فأقدم الطبعات أغلاها على الاطلاق وليس السر في هذا التفاوت بعيد الغور

كان العلامة داروين معاصراً لدكنز. الاول عالم لا يشق له غبار. والثاني روائي من الطبقة الأولى. فالاول دوّن في مؤلفاته «الحقيقة» عن التطور العضوي كما تبينها واستخرج الأدلة على صحتها . والثاني صنّف روايات، ولكن لو كان داروين حيًّا اليوم لاضطرّ ان يحذف صفحات متعددة من كتبه وأن ينفح الصفحات الاخرى . أما دكنز فلا يكون مضطرًّا ان يحذف كلة واحدة من رواياته . ان كتاب « اصل الانواع » لا يصح بحذافيره الآن ولا يستقيم بل ان طائفة من رجال العلم ترى ان جانباً كبيراً منهُ خاطىء . اما « دافيد كوبرفيلد » آية دكنز في تأليفه الروائي ، فصادقة اليوم صدقها يوم كتبت وأخرجت للناس

ألّف شكسبير مسرحية « هملت » من نحو ثلاثة قرون . ومع اني استاذٌ للادب الانكليزي ، وأمتاز على شكسبير بأني درست ثلاثة قرون من هذا الأدب التالي كانت حافلة بالأعلام والمباقرة ، أحسبني أكبر أبله في الدنيا اذا حاولت أن أنقح رواية هملت . ولقد اتيح لي ان اشاهد درامات يونانية كتبت أربعة قرون قبل المسيح ، تمثل أمام ابناء القرن العشرين فتترك أثرها البالغ في نفوسهم وعقولهم . ان هذه الروايات في صدقها ، كأنها كتبت البارحة . فما الباعث على ذلك وما تفسيره ؟

ان النتائج التي يفضي اليها البحث العلمي ، والتصريحات العلمية العامة التي يفوه بها العلماء ، تتقلب وتتحول متأثرة بعوامل متعددة. بل قد تكون الأسس التي يقوم عليها البحث العلمي عرضة للريب . حالة ان الحكايات العظيمة ، والقصائد ، والدرامات ، صادقة كانت وصادقة ما تزال. والباعث على ذلك في نظري ، هو ان الروايات العظيمة قائمة على فهم او وصف شيء مستقر ، لا تتغير اصوله ولا تتبدل الا على المدى البعيد وهو « الطبيعة البشرية »

الطبيعة البشرية لا تتغير . لم تتغير في الماضي مدى التاريخ المعروف ولا يحتمل ان تتغير في المستقبل الذي يدركه الخيال . فالرجال والنساء الذين نراهم في شوارع المدن العظيمة في سنة ١٩٤٠ تحركهم نفس النوازع والغرائز والشهوات والرغبات التي كانت تحرك الناس قبل عشرة آلاف سنة ، اذ كانوا يطاردون بعضهم بعضاً بالفأس . والفرق الوحيد بين الفريقين ان الحضارة التي توصف بأنها متمدنة تمكنت بالتعليم ان تفوق أسلافها قليلاً في السيطرة على نوازعها

ان رجاء الانسانية ليس بمعقود على تغيير الطبيعة البشرية ، ولكنه معلق بزيادة السيطرة على بواعثها الأساسية وفقاً لأحكام العقل وضرورات الاجتماع [منقولة بتصرف يسير]